



بنو مرداس

پدیدآورده (ها) : الأمين، محمد حسن

میان رشته ای :: المنهاج :: پاییز 1377 - شماره 11

از 129 تا 137

آدرس ثابت : <http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/208765>

دانلود شده توسط : رسول جعفریان

تاریخ دانلود : 14/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائه مجلات عرضه شده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه **قوانین و مقررات** استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.



پایگاه مجلات تخصصی نور

بنو مرداس



* مؤرخ وباحث من لبنان *

ثلاث إمارات عربية تنتمي في ولائها إلى أهل البيت

شهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر، في بلاد الشام، قيام إمارات عربية تنتمي، في ولائها، لأهل البيت، وقدّر لها أن تمسك بالزمام العربي جهاداً للغزاة من البيزنطيين في حين، ومن الصليبيين في حين آخر، ورعاية للأدب والشعر والعلم. فيكون منها الذّادة والقادة في ميادين الحرب، ويكون منها العلماء البارعون والشعراء المبدعون في مجالات الفكر.

هذه الإمارات ثلاث، تحدّثت في العدد الأول من مجلة المنهاج، عن واحدة منها هي إمارة بني عمار اللبناية - السورية.

أقول اللبناية - السورية لأن رفعتها شملت أرضاً من لبنان وأرضاً من سوريا، فإذا كانت عاصمتها لبنانية، وهي طرابلس، فإن ما ارتبط بتلك العاصمة، كان أرضاً ممتدة من تخوم بيروت حتى تخوم أنطاكية.

وإذا كان هناك من رأي يقول إن بني عمار هم من أصول أفريقية أمازيغية، وإن صحّ هذا القول، فإن حياتهم العربية الطويلة، منذ انتقالهم إلى مصر، وتمركزهم فيها التمرکز العربي الأصيل، ثم انتقال أحد فروعهم إلى طرابلس وثبوت جذورهم فيها الثبوت البعيد المدى، قد جعلهم من العرب في الصميم.

وهناك من ينفي ذلك، ويجعل جذورهم عربية، موزلة في عروبتهما، فقد نقل صاحب كتاب «المجتمع العربي في بلاد الشام»⁽¹⁾ أن بني عمار بطن من الدواسر، وهم إحدى قبائل بادية نجد، كما ذكر أنهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قعطبة

* مؤرخ وباحث من لبنان.

بجنوبي الجزيرة العربية، وإنهم فرقة من بني سعيد إحدى عشائر سورية الشمالية على ما يذكر وصفي زكريا في كتابه «عشائر الشام»^(٢).

ويقول صاحب «المجتمع العربي...»: إن محمد الشيخ قد فصل ذلك تفصيلاً كاملاً في رسالته «الإمارات العربية في بلاد الشام»^(٣).

والإمارة العربية الثانية هي أمانة بني منقذ في «شيزر»، وهم الذين ترجع أصولهم إلى كنانة. ولعلنا نعزم على إعداد دراسة مفصلة عنهم في الآتي من الزمن، إذا وفق الله.

أما الآن فإننا سنتحدث، بإيجاز، عن ثلاثة هذه الإمارات، وهي إمارة بني مرداس الذين ينتمون إلى بني كلاب.

أصول بني مرداس وقدمهم إلى بلاد الشام

يقول ابن العديم، في تاريخه^(٤)، إن جماعة من بني كلاب رحلت إلى الشام، في نهاية العهد الأخشيدي وبداية العهد الحمداني، وإن محمد بن طغج الإخشيد قد أقام أبا العباس أحمد بن سعيد الكلابي والياً على حلب سنة ٣٢٥هـ.

على أن وصول بني كلاب إلى بلاد الشام كان قبل عهد الإخشيد، فقد وصلوا إليها منذ الفتوحات الإسلامية التي شارك فيها القيسيون مشاركة بارزة، ثم توالى وصولهم منذ بداية العصر العباسي لا سيما أيام المأمون. ثم كان إقبالهم الإقبال الكبير في أوائل القرن الرابع الهجري وإقامة إمارتهم في حلب.

وكلاب التي ينتمي إليها المرديسون هي القبيلة العربية التي نزلت ضفاف الفرات والجزيرة، وهي كلاب بن ربيعة، بطن عظيم من عامر بن صعصعة من قيس عيلان من العدنانية. وكان الكلابيون مادة الدولة المرديسية وركيزتها، منهم تستمد القوة وعليهم تعول في الشدائد.

وعاش بنو كلاب قرابة قرن في بلاد الشام قبل إقامة دولتهم، واستطاعوا بفضل كثرتهم العددية أن يفرضوا إرادتهم في منطقة حلب، كما خلقوا لأنفسهم المناخ المناسب لإقامة إمارتهم وسط القوى المتصارعة في ذلك الوقت.

وهم كانوا انتقلوا من المدينة (يثرب) في الحجاز، واتجهوا شمالاً فسكنوا في غرب الضفة العليا لنهر الفرات، وذلك مع هجرات القبائل العربية منذ القرن السابع الميلادي. وقد لعبت هذه القبيلة دوراً هاماً في الحياة السياسية في سوريا عامة وفي شمالها بصورة خاصة؛ وذلك منذ القرن السابع حتى القرن الحادي عشر.

وقد عاصر بنو مرداس ثلاثة خلفاء عباسيين هم: القادر بالله والقائم بأمر الله والمقتدي بالله. وشملت دولتهم بعلبك وحمص وصيدا والرحبة، وامتدت إلى «عانة»، فملك جميع وادي الفرات الشامي.

ويقول ابن شداد في «الأعلاق الخطيرة»: إن صالح بن مرداس ملك حصن ابن عكار سنة ٤١٦، كما قال ابن العديم: إن صالح ملك سنة ٤١٦ حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار في ناحية طرابلس.

يقول صاحب «النجوم الزاهرة»: «لما ملك نصر بن صالح بن مرداس «حلب»، طمع صاحب أنطاكية الرومي في حلب، وجمع الروم وسار إليها وأحاط بها وقاتل أهلها، فكبسه شبل الدولة نصر من داخلها ومعه أهل البلد فقتلوا معظم أصحابه، وانهزم ملكهم صاحب أنطاكية إليها في نفر يسير من أصحابه، وغنم نصر أموالهم وعساكرهم».

انتصارات وشعر يخلدها

ومع أنه كان للمرداسيين شعراؤهم المتغنون بانتصاراتهم، فلم أجد شعراً يذكر هذا النصر.

على أن انتصار نصر على البيزنطيين الذي زحفوا بجيش بالغ بعضهم في تقدير عدده، فجعله ستمئة ألف مقاتل، فيهم الروس والخزر والبلغار والألمان والبلجيك والخزر والأرمن، بقيادة الملك البيزنطي «أرمانوس» سنة ٤٢١هـ. فوقف نصر في وجه هذا الجيش، وقاتله وهزمه وتبع فلوله إلى أعزاز وأسر جماعة من أولاد الملوك المشاركين فيه. إن انتصار نصر هذا الانتصار الباهر أنطق شاعره الحسين بن أبي حصينة المعري^(٥) بقصيدة قال فيها:

ديار الحى مففرة يباب
 نأت عنها الرباب وبات يهمي
 إلى نصر، وأي فتى كنصر
 أمتتهك الفرنج غداة ظلت
 جنودك لا يحيط بهن وصف
 وذكرك كله ذكر جميل
 و«أرمانوس» كان أشد بأساً
 أتاك يجر بحرأ من حديد
 إذا سارت كتابته بأرض
 عاد وقد سلبت الملك عنه
 فما أدناه من خير مجي
 فلا تسمع بطنطة الأعادي
 ولا ترقع لمن عسداك رأساً

كأن رسوم دمتها كتاب
 عليها، بعد ساكنها، الرباب
 إذا حلت بمغناه الركاب
 حطاماً فيهم السمر الصلاب
 وجودك لا يحصله حساب
 وفعلك كله فعل عجاب
 وحل به على يدك العذاب
 له في كل ناحية عباب
 تزلزلت الأباطح والهضاب
 كما سلبت من الميت الثياب
 ولا أفضاه عن شر ذهب
 فإتهم، إذا طأوا، ذباب
 فإن الليست تبحه الكلاب

ويقول ابن أبي حصينة، في شمال بن صالح، مشيراً إلى انتصاره على البيزنطيين في المعركة التي وقعت عند «تبل»^(٦)، ومتحدثاً عن معارك المراداسيين التي حمت الإسلام من هجمات البيزنطيين:

فلتذعن عن البلاد وأهلها
 ولتحمدين كما حمدت بتبل
 والشرك منك، ومن شقيقك، هارب
 لولا سيوفكم البواتر لالتقى
 أسندتم الإسلام إن سيوفكم

نوباً يخاف وقوعها، وكان قد
 والخيل تعثر بالقنا المتقصد
 هرب الشحاح من الغمام المرعد
 من بالثغور ومن ببرقة منشد
 لمعاقل الإسلام أفضل مسند^(٧)

وفي شمال يقول ابن أبي حصينة:

لقد عز قوم شايعوك وحصنت
 فلا يجزع الإسلام ما دمت سالماً
 ومن دون هذا الشام أنت وفتية

ثغور عليها من سيوفك أفعال
 فقد عز غيل فيه مثلك ربال
 «مرادسة» شم العرائين أبطال

وقال محمد بن حيوس^(٨)، شاعر الدزبيري، معترضاً ببني مرداس:

فَدَعَ الألى مرقوا فإنَّ بعادهم عن ذا الجنب لهم عقابٌ مؤلِّمٌ
أولادٌ مزداس لسيفك طعمة في كلِّ أرضٍ أنجدوا، أو أتهموا

فردَّ عليه ابن أبي حصينة، شاعر ثمال بن صالح، من قصيدة مشيراً إلى الفرق بين الدزبيري الذي بعثه الفاطميون إلى الشام أميراً، فخانهم، واستبدَّ بالأمر، وبين المرادسي الذي ما زال ناصحاً مخلصاً للفاطمين، ومشيراً كذلك إلى حماية المرادسيين للثغور والعواصم من هجمات البيزنطيين:

أين الذين تفوَّهت شعراؤهم بالمين، وافتخروا بمالم يعلموا
زعموا بأنَّ طعمة لسيوفهم في كلِّ أرضٍ أنجدوا أو أتهموا
إن يصدقوا فيسوفُ من تركتهم صرعى تهزهم النسور الحوم
بخراب حمص والجباب خيثة منهم كأنَّ مياهن العندم
لا ينجحن الدزبيري بما جرى قدماً، فقد وضَّح الطريقُ الأقومُ
شئان بين الدزبيري وبين من نصَّح الإمام نصيحةً لا تسقم
هذا يعق، وقد أطاع، وذا عصى من بعد أن أضحى يعز ويكرم
أما العواصم والثغور فلم تزل تحمى بنا دون الملوك وتُخصم

وفي ثمال بن صالح، يقول عبدالله بن سنان الخفاجي^(٩)، متحدثاً عن بطولات المرادسيين في دفاعهم عن الوطن وردِّهم الغزوات البيزنطية:

تَرُورُ جِياذُه أرضَ الأعادي وأطرافُ الرِّمَّاح لها دليلُ
وملكٌ شاده طَعْنُ الهوادي تزول الرِّاسيات ولا يسزول
حذار فإنَّ في حلب ليوثاً أنايبُ الرِّمَّاح لهنَّ غيل
ومن بطن الشام إلى «رجيل» مرابعُ نبتها الأسل الطويل
يشيد دونها لبني كلاب بيوت ما يضامُّ لها نزيل
تسيل شعابها بندي ثمال فليس لها إلى كلِّ أرحيل

ويقول في استرجاع محمود بن نصر بن صالح حصن «أسفونا»^(١٠) من البيزنطيين بالرغم من كثرة عددهم، بعد أن اجتمعوا على قتاله، وقد قتل حوالى ألفين وسبعمئة منهم:

أما ظباك فقد وقت بضمانها
 إن أظهرت لعلاك أنطاكية
 بعث البريد فجراً عن وثبة
 لما أطل له لواءك خافقاً
 إن عاد نحوك جانب من كيده
 فمتى تجودُ بها على أجزانها
 حزنأ، فقد ضحكت على قطانها
 ما كان أحوجَه إلى كتمانها
 عرَفت وجوه الذل في صلبانها
 قامت له الخطباء في قميانها

وقال الشاعر أبو الفضل، عبد الواحد بن محمد الحلبي الربيعي، في الحادث نفسه، مخاطباً محمود:

رددت على الإسلام شرخ شبابه
 وظن طغاة الروم منذ أغبهم
 وكادت عليه أن تقام المآتم
 نزألك أأ حين ذاك نسالم

ويقول محمد أسعد طلس، محقق ديوان «ابن أبي حصينة»، في مقدمته للديوان: «... حلب التي ازدهرت فيها الحركات العلمية ازدهاراً عظيماً في عهد بني حمدان، وقد استمر ذلك الازدهار في عهد بني مرداس الذين كانوا لا يقلون كثيراً عن الحمدانيين تشجيعاً للعلم وهدباً على أهله وبخاصة زعيمهم صالح، وابنه ثمال، فقد كانا محببَين للعلم وأهله، كما كانا من أصحاب المواهب العربية الصافية التي تمجد الشعر وتكبر قدر اللغة».

وعدا مقارعة المرداسيين للبيزنطيين، فقد واجهوا الطغيان السلجوقي بنخوة عربية، فعندما زحف ملك شاه وأخوه تتش بن ألب أرسلان على الإمارة العربية في حلب في عهد سابق بن محمود، استنجد سابق بالأمير العربي أبي زائدة محمد بن زائدة، وأمر وزيره أبا نصر بن النحاس بأن يرسل قصيدة لهذا الأمير يوضح له تجدد خطر الاجتياح السلجوقي على ما بقي من ملك عربي هناك، ويطلب إليه أن ينجده كما فعل من قبل، فقال في القصيدة:

دَعَوْتُ لِكَشْفِ الخَطْبِ، وَالخَطْبُ
 وَوَفَيْتَ بالعهد الذي كان بيننا
 وَمَا زَلتَ فَرَّاجاً لِكُلِّ مَلَمَةٍ
 فشمّر لها، وانهض نهوض مشيع
 مُعْضِلٌ، فَلَيَّيْتَنِي لما دَعَوْتُ مُجَابِياً
 وَفَاءَ كَرِيمٍ لِمَ يَخُنُ قَطُّ صَاحِبِياً
 إِذَا المَجْرَبُ الصنديد أدبَر هائباً
 له غمرات تستقل النوايباً

وها أنا لا أنفك أبذل في حمى
أأذخر مالي عنكم وذخائري
حماكم مجدداً مهجتي والרגائب
إذا بت عن طرق المكارم عازبا

فاستجاب ابن زائدة للاستنجد، وأرسل إلى سابق قصيدة يقول فيها :

دَعَوْتُ مجيباً ناصحاً لك مخلصاً
فليئت لا مستنكفاً جزعاً ولا
أسبقُ صرف الدهر في نصر «سابق»
فلما التقيناهم غدا البعض سالباً
وكان يرى في كفه الشام حاصلأ
وليلة «كريمين» تركنا كرامهم
وفي يوم «خناقية» قد خنقنهم
فكم فارس منهم تركنا مجدلاً
وإذ أيقنوا أن ليس للكسر جابرٌ
وخلّوا بها كسباً حووه وأبصروا

يرى ذاك فرضاً لا محالة واجبا
جباناً إذا خاض الكريهة هائبا
إلى تركمان الترك أزجي النجائب
لأنفسهم والبعض للمال ناهبا
ويوم «بُزاعا» ردّ ما ظنّ خائباً^(١١)
كضأن بها لاقت مع القدر قاصبا
بعثير ذلّ ردّ ذا الشرخ شائباً
يباشرُ تُرب القاع منه الترائب
تولوا وعن «جبرين» حثوا الركائب
سَلَامَتَهُمْ مِنَّا أَجَلٌ مَكاسباً^(١٢)

وما كان للدولة المرداسية أن تعيش أكثر ما عاشت في عصر الفتن الصاخبة، فزالت الدولة، ولكن القبيلة لم تنزل، فظل بنو كلاب أبطالاً في الميدان العربي. وحسبك أن يقول عنهم القلقشندي في الجزء الرابع من «صبح الأعشى»: «كانوا عرب أطراف حلب، وكانت لهم غزوات وغارات عظيمة على الروم وإنهم من أشد العرب بأساً».

وظل الكلابيون، بقيادة بني مرداس، فرساناً مناجيد حتى دهمت العالم الإسلامي الحروب الصليبية، فتجنّدوا لها بقيادة أميرهم وثاب بن محمود بن نصر بن صالح. وفي وثاب هذا ومعاركه يقول ابن الخياط^(١٣):

عَتَاذُكَ أَنْ تَشَنَّ بِه مَغَارَا
كَأَنَّ أَهْلَةَ قَدَحَتِ نَجُومَا
وقد هبت سيوفك لامعات
أما والسابقات لقد أباحت

فقد هاشزيباً قبا تباري
إذا قدحت سنا بكها شرارا
تفرّق في دُجَنَّتِه نهارا
لك الشرف الممنع والفخارا

فَزَرزَ حَلْباً بِكُلِّ أَقْسَبٍ نَهْدٍ فَقَدَ تَدْنِي لَكَ الْخَيْلَ الْمَزَارَا
وَيَأْبَى اللهُ إِنْ أَبَتِ الْأَعَادِي لِنَاصِرِ دِينِهِ إِلَّا أَنْتَصَارَا

وفي محمود بن نصر بن صالح يقول عبدالله بن سنان الخفاجي :

لا يذكروا حلباً، وبيضك دونها مشهورةٌ فهي الظُّبَا وهمُّهمُ
كم وقفه لك دونها مشهودةٌ والتَّقَع لَيْلٌ، وَالْأَسِنَّةُ أَنْجَمُ

الهوامش:

- (١) المجتمع العربي في بلاد الشام، ص ٨٩، نقلاً عن الألويسي في «تاريخ نجد»، ص ٨٩ وعن عمر كحالة في «معجم القبائل العربية»، ٨٢١/٢.
- (٢) وصفي زكريا، عشائر الشام، ٢١٢/٢.
- (٣) المجتمع العربي، م. س.، نقلاً عن «الإمارات العربية في بلاد الشام، ص ١١.
- (٤) ابن العديم، زبدة الحقب، ٩٨/١ و ٩٩.
- (٥) الحسين بن أبي حصينة المعري، هو أبو الفتح الحسين، وقيل: «الحسن»، بن عبدالله، من معاصري أبي العلاء المعري في معرة النعمان. ولد ونشأ فيها. اتصل بالدولة المرديسية في حلب، فكان من شعرائها المنقطعين إليها، وقد أرسله تاج الدولة بن مرداس إلى الخليفة الفاطمي المستنصر في القاهرة. ومن شعره وهو في مصر:
- أقول وقد أشرفت ذات عشية على النيل من إحدى الهضاب الشواهد
ومن دونها فسطاط مصر وزاخر كأن بشطيه مسوك الخرائق:
- خليلسي شيمًا بارق الشام إنسي نظرت إلى إيماض تلك البوارق
ولمّا مات أبو العلاء رثاه بقصيدة مطلعها:
- العلم بعد أبي العلاء مضيع والأرض خالية الجوانب بلقع
توفي ابن أبي حصينة في سروج سنة ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م، وله ديوان شعر مطبوع في دمشق سنة ١٩٥٦، في جزئين.

(٦) تَبَل: من قرى حلب من جهة إعزاز.

(٧) برقة منشد: ماء لبني تميم وبني أسد.

(٨) محمّد بن حيّوس هو الشاعر الدمشقي محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس الغنوي. له ديوان شعر كبير. ولد سنة ٣٩٤هـ وتوفي سنة ٤٩٣هـ في حلب. كان يتقلّب بين المرديسين وبين أعدائهم، فهو بينما يقول هذا الشعر نراه يقول في نصر بن محمود المرديسي حين استعاد (منبج) من البيزنطيين سنة ٤٦٨ (١٠٧٥م) قصيدة مطلعها:

وطريدة للدهر أنت رددتها قسراً فكنت السيف يقطع مغمداً

● بنو مرداس

(٩) أخذ ابن سنان الخفاجي الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، وسمع الحديث وبرع فيه. توفي بقلعة إعرزاز من أعمال حلب مسموماً سنة ٤٦٦ هـ (١٠٨٩ م) وكان والياً عليها. وهو شاعر مجيد متفنن في ضروب الشعر، وقد مدح الأمراء من بني مرداس وبني منقذ وبني ملهم والمتأخرين من بني حمدان. ترك ديوان شعر وكتاب «سر الفصاحة» الذي أراد بتأليفه أن يوضح حقيقة الفصاحة ويكشف عن سرها لأنه يؤمن بأن لكل جمال في الكلام سبباً يمكن الاهتداء به، فأراد أن يضع كتاباً يستطيع به دارسه أن يعلل ويستدل ويعرف الوجوه والأسباب.

(١٠) أسفونا: اسم حصن كان قرب معرة النعمان. وفي قنته يقول أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين:

عَدَاتُكَ مِنْكَ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ يَرِيدُونَ الْمَعَاقِلَ أَنْ تَصَوْنَا
وظَلُّوا حَوْلَ «أَسْفُونَا» كَقُومٍ أَنَّى فِيهِمْ فَظَلُّوا أَسْفِينَا
(١١) بزاعا: أوردها في معجم البلدان بالتاء «بزاعة» وقال: منهم من يقول «بزاعا» وأورد هذا البيت: لو أن بزاعا جنة الخلد ما وفي رحلي إليها بالترحل عنكم
ثم قال: بلوة من أعمال حلب، بين منبج وحلب، فيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة.
(١٢) جبيرين: من توابع حلب.

(١٣) ابن الخياط هو الشاعر الدمشقي أحمد بن محمد أبو عبدالله. وقد خرج هذا الشاعر من دمشق في الآونة الممتدة ما بين سنة ٤٦٣ و٤٦٩ هـ؛ إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه فقصد حماه، ثم ذهب إلى حلب فالتقى بالشاعر ابن حيوس فشكاه حاله وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَا يَبَاعُ بِدِرْهَمٍ وَكِفَاكَ مِنْ مَنِي مَنْظَرٌ عَنِ مَخْبَرٍ
إِلَّا صَبَابَةٌ مَاءٍ وَجِهَ صِنْتُهَا عَنِ أَنْ تُبَاعَ، وَأَيْسَ أَيْسَ الْمَشْتَرِي؟!
فقال ابن حيوس: لو قلت: «وأنت نعم المشتري» لكان أحسن. ثم نصحه بأن يقصد بني عمار في طرابلس. ويحدود سنة ٤٧٦ هـ. جاء ابن الخياط طرابلس، وهو ابن ٢٦ سنة، فأكرمه بنو عمار وحسنت حاله. وتقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.